خليل مطران

هيهات أنسى «خليلاً» صاحبي وأخي أيام تصفو مسودات من العلل

مضى خليل مطران بعدما قضى وذهب الى بارئه في يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٩

مضى فانتهى سعد حديث غضب يختار ترياقاً للأذان وعصت سمعه بشاشة جيل محتها العلة المانية، ومضت وراءه قلوب أفزعها هول الفجيعة واعتصرتها محنة الفراق

مضى الزين الأريحي الهمام صاحب القلب الكبير والنفس المتسعة الشيم المترفعة

مضى بأدبه وآدابه بمحامده ومكرماته ببره ووفائه بأخائه وأبوته

مضى في ركب جف به الخلان وقد سحت عيونهم دموعاً غزيرة ودميت قلوبهم أسىً

مضى الى عالم الصمت من كان لا يعرف الصمت ومضى الى عالم الصمت من كان مشتعل النشاط ملتهب الحيرة

مضى الانسان خليل مطران، وقليل من يصدق رحيلهم عن الانسان

عرفت مطران في سنواته الأخيرة أيام تأصلت منه نعمة فؤاد هزا الاعلى عزال، وضعفاً على ضعف وهشاشة على هم ولكنه كان يعرف كيف يحيل هذا العلل جميعاً الى مدعاة للاستبشار فيقول في رده المستسلم القانع المؤمن: «ما الله كريم». وقد رددها مرات ومرات في كل مرة التمست فيها العذر لتخلفي عن زيارته في اليوم المرعي الذي اصطنع دقائق كي لا تكون الزيارة ثقيلة على مريض ضعيف من الطبيعي بعد حراك وتهري بدنه من وقعة صيف حار وزمهرير شتاء لا يبالي ان كان إنساناً عليلا وطأة الداء يقول قولة تجري على الألسنة في بعض قرى بنان:

«وجسمي صار نفس هي ونفس ... ونفس الحي باقي للعذاب»

كان كل ذكر أماه اسم تناوله من جدة المشرق اذ كان اسم كبير أو صغير.

لا يعرف اللوم ولا القدح ولا يبيح لنفسه ان يجرح أحداً في غيبة أو يشهد منه . وحاشاه وهو صاحب ذلك القلب الكبير ان يقول قولاً في حق أحد حتى ولو توصب العداء

فكر ذات يوم ان يدوّن مذكراته سطرها السياسي والأدبي ، ومضى يكتب ويحبر ولكنه ما كان ما نفض يديه من أوراقه وتمزقها ممزقاً مبعثراً . ولما سألته السبب قال : لست أريد ان أغير التاريخ ولست بقادر على أن أكتب الحقيقة كما يغير أن أعرض اليوم صديق فلتحرق المذكرات ولتبدد الخاطرات ولا يقال ذات يوم أن خليل مطران أساء الى زيد من الناس أو تعرّض لعمرو من أصدقائه .

ويوم دعا خليل مطران أن لجنة ألفت لتكريمه ولنشر شعره ودواوينه . قال : ما هؤلاء القوم يشغلون أنفسهم بما لا يستحق منهم مشغلة أو حتى يريدون نشر أوراق لا قيمة لها . حق لها أن تحرق ولا تذاع .

فقد كان مطران متواضعاً في غير كلفة ولا اصطناع يرى شعره السمين هزيلاً ويستصغر شأن مواهبه التي بها غزا عالم الأدب وغذاه . وكان دأبه أن يزر الاصاغر حتى لا يقتل فيهم روح الطموح ويشجع الشبيبة حتى يخلق أجيالاً من الرجال النافعين ، ويحث كل ناشيء مادًّا له باليمين صاعد العون وباليسار يد التشجيع والتوجيه ، كان مطران مدرسة كثيرة القد كثيرة الرواد يقبل عليها كبار إقبالاً ولا يرومون عنها إدباراً ، يجلسون معه فيسمعون ويتأدبون ويتعلمون من نبع المعارف الغائر المعين .

ما من قاصد إليه ردّه ، ولا من ساع ببابه صرفه ، وما من مستطلع شيمه خائباً فقد كان مطران أميراً نبيلاً يهب الناس كل ما يستطيع ولو قدر لوهبهم ملكاته ومواهبه ومحصلاته الفكرية ورصيده من المعرفة

واليوم تلفت ذات اليمين وذات اليسار فلا ترى خليل مطران الذي شغل من كل قلب ذكراً أن أن يملأ غيره فقد آذنت شمس حياته بمغيب وآن له أن يلحق بالغابرين من رصفائه الشعراء بعد ما دام فراقهم طويلاً .

معنى الزكي يحث الخطى تشيعه الأفئدة والقلوب في مصر وتجزع له الأفئدة والقلوب كل مصر فليس خليل مطران ممن يجود الزمان بمثله كل أوان ولا هو ممن تتكرر في جيل ولكنه فرد فريد سيظل على الدوام سابقاً في عالم الأدب العربي . وسيبقى ذكره أبد الدهر معطراً بأريج الزكي من الخلال

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

رويتر فلسطين